

المقطف

الجزء الثالث من المجلد الحادي عشر بعد المئة

٢٨ رمضان سنة ١٣٦٦

١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧

بين التصحيح والتوضيح

حول نقد كتاب « الله »

نظر الأستاذ عباس محمود العقاد في النقد الذي تناولنا فيه كتابه « الله » في العدد الماضي من المقطف ،^(١) ومضى يناقش فيه مناقشة العالم الذي يحاول ، كما ينبغي ان يحاول العلماء الوصول الى الملقى من طريق التساؤل المنطقي المتصريف ، نسائم معنا بكثير مما خالفناه فيه ، وخالفنا في أشياء مضي بمرضاها وبوضعها بما عهدناه فيه دائماً من بيان العبارة وجلاء النكرة ونحن إذ نحمد للأستاذ هذا النهج ، نجدنا أكثر حذراً إذ يلتحق أديب مفكر مثله هذا المنحى وينزع هذه الزعة ، كما نود أن يصبح ضمير الناس أكثر يقظة ، نرى ناهيون منهم أن في مجال التأمل الفلسفي شيئاً أو أشياء جديدة بأن تكون موضعاً للاهتمام في الفكر أو للموازبات المنطقية .

والحق أنني أخالف الأستاذ العقاد في كثير مما ذهب إليه في ملاحظاته وودوده ، بل أعتقد أنه قد جانب الصواب في كثير منها ، فلنأخذ من نعمت في النظر في كل مما عرض له الأستاذ في مقاله^(٢) .

١ - الاستحياء

سرف الأستاذ هذا اللفظ ليقابل مصطلح *anonymism* في اللغات الأجنبية ، وذهبت الى أن حقيقتها النكرة الرومانية ولا أزال عند رأي ، كما استشهدت على ذلك بتعريف معجمي ثبت .

(١) جلد يولييه سنة ١٩٤٧ (٢) الرسالة العدد ٧٣٥ الصادر لي ، من أغسطس سنة ١٩٤٧

يقول : الأستاذ « إن كلمة « أنيميزم » لها معانٍ كثيرة تختلف باختلاف العلوم التي تدخل فيها ، وهي في علم وظائف الأعضاء غيرها فيما وراء الطبيعة وغيرها في علم أصول الإنسان » .

ولست أعرف حتى الآن أن هذا المصطلح قد جرى بأي معنى في علم الوظائف أو علم وظائف الأعضاء كما يقولون ، ولو أن الأستاذ يدلنا على شاهد واحد يؤيد ما ذهب إليه ، حدثنا له ذلك جداً كثيراً .

والحق أن هذا التقط لا يدخل في استعمال شيء من العلوم البحتة ، وإنما هو كثير الدوران في علوم نظرية أو علوم عملية ، وهو فيها جميعاً يدل على الروحانية أو القول بالروح . جاء في المعجم التلغفي الذي طبع بإشراف « داجوبرت روز » Dagobert D. Rues وهو من أحدث المعاجم ما يلي :

Animism : (Lat. anima = soul) . The doctrine of the reality of souls.

(1) Anthropology (a) the view that souls are attached to all things either as their inner principle of spontaneity or activity, or as their dwellers. (b) The doctrine that Nature is inhabited by various grades of spirits (spirittism).

(2) Biology, Psychology : the view that the ground of life is immaterial soul rather than the material body.

(3) Metaphysics : the theory that Being is animate, living, ensouled.

(4) Cosmology : the view that the world and the astronomical bodies possess souls. See pp. 12-13.

ومن هذا نرى أن المصطلح في علم الإنسان إما أن يدل على اعتقاد في أن الأرواح لها علاقة بالأمياء ، وإما على أن الطبيعة مأهولة بطبقات متفرقة من الأرواح (وهذا ما بحث فيه تابلور) . وهو في علم الأحياء وعلم النفس يدل على القول بأن أساس الحياة روح غير مادي فضلاً عن الجسم المادي . وفي فلسفة الكون يدل على أن العالم والأجرام السماوية لها أرواح . فهو في جميع مدارجه يدل على الروحانية ، وفي جميع استعمالاته يدل على الروح أو الفكرة فيها مطابقة على مختلف هذه العلوم .

وكذلك نرى المعنى في معجم بولندوين التلغفي وفي المعجم الانسيكلوبيدي وفي معجم منتهودي وهي من أمهات المصانف العلمية والأدبية ، فإذا لم نأخذ عنها فنس أي شيء نأخذ ؟ أما القول بأن مثل هذا المصطلح لا يرجع فيه إلى المعجمات ، وإنما يرجع فيها إلى معنى المذهب الذي تدل عليه كما يقول الأستاذ العقاد ، فنقول لاحقة له من جهات عديدة . منها أنه ليس هناك شيء يقال له « معنى المذهب » فالذهاب لا تقوم على معانٍ وإنما تقوم على نظريات أو أفكار ، والطريق السليم إلى تبيانها هي المصطلحات المحصورة للمعنى المحدودة

الدلالة . ومنها أن المصطلحات إذا رجع في فهمها إلى ما ينقل مذهب من المذاهب إلى فكر كل تارئ أو باحث من غير تقييد بالمعنى المحدود للمصطلحات ، أصبح الأمر فوضى ، بل أصبح حياء ، بل تمدد أن يقرم مذهب عقلي على أساس ثابت . ذلك بأن المصطلح المحدود الدلالة هو الأداة الثابتة في تكييف المذاهب ، ولم يخرج عن ذلك مذهب واحد من المذاهب على مدار العصور .

من هنا يقول الأستاذ العقاد : « إن المعنى المقصود في مذهب تييلور أن الممحي كان يؤمنه الأشياء والظواهر الطبيعية (يقصد الظواهر الطبيعية) لأنه كان كالطفل الذي يضرب الباب إذا اسطدم به لأنه يحسبه في حكم الأحياء (يقصد أنه من ذوات الأرواح التي تمت الحياة) . ونحن لا نقول (الأستاذ العقاد) إن الطفل يضرب الباب لأنه يؤمن بالتمسكة الروحية ، وإنما نقول إنه يضربه لأنه يؤمن بالاستحياء ، أو لأنه يستحي الأشياء التي ليست لها حياة . » اهـ

وفي هذه الصبغة ناحيتان : الأولى رأي الأستاذ « تييلور » ، والثانية وجهة نظر الأستاذ العقاد . فرأي تييلور على أن الممحي يضرب الباب لأنه يحسبه حيًّا أي أن فيه روحًا ، وذلك هي الروحية بعينها . أما رأي الأستاذ العقاد فلا يقول بأن الطفل (ويقصد الممحي الذي هو كالطفل بحسب منطوق الصبغة الأولى) يضرب الباب لأنه يؤمن بالتمسكة الروحية ، بل يضربه لأنه يؤمن بالاستحياء أي أنه يستحي الأشياء التي ليست لها حياة . وإذن يكون رأي تييلور هو في لطاق « الانيميزم » حقًا ، أي في نطاق الفكرة الروحية . أما رأي الأستاذ العقاد فنخرج من ذلك النطاق ولا يدخل في باب الانيميزم ، وبذلك يصبح إطلاق معنى الانيميزم عليه خرق لنطاق المعنى المحدد لهذا المصطلح في العلم النظرية . وللاستاذ العقاد رأي ، ولكنه ليس حرًّا في أن يقول إن الانيميزم دال عليه . واذن فليبحث له عن مصطلح جديد يصفه له ، وقد تكون أقرب كلمة للتعبير عنه في الإنجليزية هي : Enslaving

ولا يخفى أن مذهب تييلور وهو مذهب معروف منذ زمان طويل ، يختلف عن المعنى الذي أراداه الأستاذ العقاد اختلافًا مبيِّنًا . فالممحي على مذهب تييلور يعتقد بأن للأحياء أرواحًا تسخرها ، لا أنه يستحيها كما يريد الأستاذ العقاد أن يقول . ومن ناحية اللغة نعرف أن الألف والسين والتاء تفيد إضافتها إما الطلب وإما العيرورة . وكل من المعنيين بعيد عما يعني بالروحية : Animism ، فإن الممحي ونقًا لهذا المذهب لا يطلب من الأشياء أن تصبح حية ، ولا هو ينتظر أن تصبح حية . وإنما هو يعتقد أن أرواحًا تلابسها فتسخرها ناشئتها .

فاذا انتقم منها أو صب عليها غصه ، فأما يفعل ذلك وهذا المعنى تأم في محيته . ولكنه لا يستجيبها : أي انه لا يطلب منها أن تحيا ولا ينتظر أن تعبر حية .

٢ - تعدد الآلهة

سلم الأستاذ العقاد معنا بأن لفظة Polytheism رجعها الشرك ، ثم عقب على ذلك بقوله : -

« ولكنك لا تقول إن القبائل المصبية كانت تؤمن بالشرك لأن الإيمان بالشرك يقتضي الإيمان قبل ذلك بوحداية الله . ولا معنى لأن تصف انساناً بأنه مشرك ، قبل أن يظهر على الكرة الأرضية دين يدعو إلى التوحيد ، أو يدعو إلى الآله الواحد الذي يدعو إلى غيره أو لك المشركون » . اهـ .

وفي هذه العبارة جهات من النقد .

أولاً - إن القول بأن الشرك حالة لا توصف بأنها كذلك قبل ظهور دين يقول بالتوحيد ، أمرٌ ينطوي على مغالطة صريحة . فاذا فرضنا أن دين التوحيد لم يظهر في هذا الوجود ولا عرف الناس في هذه الكرة هيئاً يقال له « وحداية الله » ، أيعنى ذلك لغة أن نسمي الحالة الأولى حالة شرك أو اشراك ؟ وهل نحتاج إلى تحديد معنى « التوحيد » و « الوحداية » ليكون صرفنا كلمة شرك على حالة تكثير الآلهة أمراً مستقبياً مع صفتك اللفظة ؟ ثانياً - لم يكن هناك دين يقال له الشرك أو الاشراك ، وإنما كانت هناك أديان كثيرة لكل دين منها آلهته وطقوسه وعباداته وتمدناته ومهرماته (أي طوائمه وطبقاته) ، وإنما يجمع هذه الأديان جميعاً حالة واحدة نسلها ، هي حالة الشرك أو الاشراك . وعلى هذا ينتهي أيضاً القول بأن هناك إيماناً يقال له « إيمان الشرك » . وإنما الإيمان يكون بدين ، حالته المكيفة له هي الشرك . كما نقول إن الإسلام دين حالته المكيفة له هي التوحيد .

ثالثاً - إن ظهور أديان تقول بالتوحيد أمرٌ لم ينشم من حالة الشرك ولم يزد إليها شيئاً . وكل ما في الأمر أن « التوحيد » جعل معنى « الشرك » أكثر تحديداً لا غير . وإنما - يقول الأستاذ العقاد :

« فلو قال لنا مؤرخ إن الجميع أشركوا قبل أن يؤرخ لنا ديانات التوحيد لكان كلامه هذا خطأ في التاريخ وخطأ في التعبير » . اهـ .

ولست أرى في القول بأن الجميع أشركوا بمعنى أنهم نشئوا ومضوا مشركين أي خطأ لا في التاريخ ولا في التعبير . ذلك بأنهم أشركوا بالفعل ، بمعنى أنهم أشركوا مع إله كبير

آلهة صغيرة ، أو أنهم جعلوا لكل ظاهرة أو حالة إلهاً . أو بمعنى أنهم أشركوا آلهة كثيرة في تدبير الطبيعة والحياة . أمّا القول بأن إنساناً كان موحداً ثم أشرك ، أو جماعة كانت موحدتة ثم أشركت ، فذلك معنى آخر بالمرّة ، بعيد عن المعنى الأول بعد الأرض عن السماء .

وقوله تعالى : « ولأنّ مؤمنة خيرٌ من مشركة ولو أعجبتم » : يقتضي وجهين : الأول أن تكون موحدتة ثم أشركت ، والثاني أن تكون مشركتة لم تعرف التوحيد . « ففي الأمر الذي فيه تشبهتان » .

٣ - أسماء وحروف يونانية ولاطينية

يحتاج الكلام في هذه المسألة الرجوع بعض الشيء الى مسألة تاريخية . ففي دور الانقراض الرابع ألف جمع فؤاد الاول للغة العربية لجنة من بعض حضرات أعضائه لتتظر في شأن كتابة الاعلام اليونانية واللاطينية بحروف عربية . وقد اشتركت في هذه اللجنة مؤلفاً ، فأعدت لها البحوث وأخذت على ضوءها القرارات ، بعد أن بحثت اللجنة ذلك الأمر بحثاً دقيقاً مستفيضاً ، وانتهت عند قرارات آسبل على المعريين تعريب تلك الاعلام بما يقرب جرسها في اللغة العربية ، من لفظها في تشبيهاً الاثنتين . أما الذي حضو المجمع على أن يفكر في ذلك أن كل مترجم من اللغات الاوربية يرسم الاعلام في العربية منطوقة بحسب اللغة التي يترجم منها . فالمترجم من الانجليزية ينقل الاعلام كما ينطق بها الانجليز ، والمترجم من الفرنسية ينقلها كما ينطق بها الفرنسيون وهكذا في حين أن الواجب ان يوحد النطق بهذه الاعلام فترسم في العربية رسماً يقرب جرسها من النطق بها في لغتها الأصلية .

- ولقد قرأت في كتاب مطالعة للدارس الثانوية أفرته وزارة معارفنا الموقرة ، ويحمل غلافه أسماء خمسة من اعلام أدبائنا ، مقالاً رسم فيه اسم قائد يوناني بأربعة رسوم مختلفة . وكفي بذلك بلبلة لطالب ثانوي لم يشب بعد من الطوق لهذا شرعت في وضع معهم في الاعلام القديمة استهديت في وضعه بالقواعد التي أقرها المجمع وزدت اليها قواعد أخرى ، وربما شرعت في طبعه قريباً . فان العربية في حاجة قصوى إليه .

فإذا كنت قد نهيت الى هنات درج عليها صديقي الأستاذ العقاد ، فذلك صيبها ، وهذا منشرها .

ولقد نسي الأستاذ انه استعمل في كتابه لفظين يروم أحدهما في الأعمجية الحديثة

أقول : ولست مخطئاً لامن جهة اللفظ ولا من جهة المعنى ، وإن الخطأ كل الخطأ هو في ما يقول به الأستاذ العقاد . فإن في اليونانية أصلين : أحدهما dia والآخر duo والأصل الثاني هو الذي أخذ منه deus الفرنسية و Two الإنجليزية ، وليس هذين اللفظين أية علاقة بالأصل الأول dia الذي دخل في تركيب : dialect ؛ إن لفظ dia معناه في العربية « بين » أما لفظ duo فعناه « اثنان » ، وهذا لم يدخل في تركيب : dialect ، بل ولا تمت إليه بأية صلة . وإليك الشواهد القاطعة .

(1) Two : Century Dictionary p. 6558-Vol. VI.

Lat : duo : old French : dous, dus, deus, deux; new French : deux. Greek : duo.

ومن هذا الأصل duo أخذ لفظ dual أي ثنوي أو ثنائي ؛ وإليك الشاهد :

(2) Dual : Century Dictionary, p. 1780, Vol. II

L. dualis; Greek : diukos : δύο = two

أما لفظ ديابالكت dialect فيدخله الأصل dia ومعناه « بين » وهو الذي يختل للاستاذ العقاد إن معناه « اثنان » حيث تشابه عليه الاملاق dia و duo ؛ وإليك القاعد :

(3) Dialect : Century Dictionary, p. 1590, Vol. II

L. dialectos, dialectus : Greek : dialegein = distinguish, choose between :

from Greek : dia = between + legein = choose, speak

Greek : dialectós = discourse, discuss, argue, use a dialect or language.

إنق لفظ « ديابالكت » - dialect لا يدخله أصل يوناني أو لاتيني فيه معنى « الاثنين » ولا « الثنوية » ولا « الثنائية » ، بل يدخله أصل فيه معنى « البينية » . فلفظ « ديابالكت » مركب من الهجاء dia « ؛ ومعناه « بين » ، والحرف ليجين legein ومعناه يختار أو يتحدث ، وتخرجه « التخيير أو التعادد » فأين معنى الثنائية في ذلك ؟ وإن يكون تلميح الأستاذ العقاد من الجهة القرية لا أصل له ولا يستند إلى أي أصل أعجمي على إطلاق القول ، ولم يبق إلا التخرج الفلسفي الذي يقول فيه الأستاذ العقاد ما يلي :

« ولأن مذهب كارل ماركس وهو « الديالكتك » يقوم على أن المادة ثنائية الخصائص تشمل على الخاصة وتقبضها ، ولا يقوم على أن المادة جدلية أو يجادل بعضها بعضاً في أطوارها المتتامة » . اهـ .

وقول بأن الذهاب إلى أن مذهب كارل ماركس هو « الديالكتك » أمر لم يقل به

غير الأستاذ العقاد على ما أذكر وبقدرة ما يتسع له علمي . على أي أكاد أجزم به . ذلك بأن مذهب ماركس هو « المادية الجدلية » - « ديالكتيك مثير بالرم » ، وهتان ما بين المذهبين .

بدأ مذهب الجدل أو المذهب الجدلي بأرسطوطاليس ، وقد فرّق بين التمثل الجدلي Dialectical Reasoning الذي ينشأ بالتميز المنطقي من آراء مسلم بها عموماً ، والتمثل الاثباتي Demonstrative Reasoning الذي يبدأ بتقدمات أولية صحيحة . ولم يتبع أرسطوطاليس أنه أول قائل بالمذهب ، بل رده ال زينون الألباوي . وإن كان الواقع أن مذهب الجدل بطريق الطاورة قد نشأ مع سقراط وتلميذه أفلاطون . ثم تجرّ في فلسفة « كانت » ومن بعد « كانت » في فلسفة « هيغل » ، ومن « هيغل » أخذ ماركس وانجلز ، ومعنى أخذنا أنهما استندا إلى جدليات « هيغل » في وضع مذهب مادي ، طبّقا على التاريخ باعتباره من خالق العوامل الاقتصادية . ويتناول بنا البحث إذا نحن أردنا أن نبيّن وجه العلاقة بين هيغل وماركس ، فنكتفي بأن نبيّن المعنى الحقيقي الذي تنطوي عليه « المادية الجدلية » وهي مذهب ماركس . ذلك بأنك إذا قلت الجدلية وحده ، أخرجت من ذلك المجال ماركس ومذمبه .

يتألف مذهب ماركس من حقين : الأول « المادية » والثاني « الجدلية » ، ومن تضابهما نخرج باسم المذهب كمالاً . فالمنفرد بالمعنى من انشغابين ؟

يقصد ماركس « بالمادية » من ناحية وجودية صرفة أن المادة والطبيعة والدينا المنظورة هي في مجموعها حقيقة واقعة قائمة بذاتها ، ولا تستمد حقيقتها من أية قوة كانت سواء أكانت هذه القوة فوق طبيعية أم استشرافية ، كما لا يتوقف وجودها على عقل الإنسان ، وأنه من الملم علياً أن المادة وجدت قبل نفوس العقل البشري ، سواء أمن ناحية الزمان أم من ناحية المنطق ، بمعنى أن العقل لم ينشأ إلا بمحكم تطور مادي ، وإن المادة ينبغي أن تقصر بمتشغلي ذلك . وإن المكان والزمان يجب أن ينظر فيهما باعتبارهما سرورين تتوقفان على وجود المادة (١).

(البغداد باب الاخبار الطبية من ٣١٥)

(1) The Dictionary of Philosophy ، Dagobert D. Runes, 1946, p. 79.